السُّنَّة النَّبويِّة ووفاؤها بالفطرة والحاجاتِ الإنسانية (دراسة استقرائية وصفية)

✍. د. ميساء علي روابدة (★)

مقدمة:

لا ريب أن الدين يعد ضرورة من ضرورات حياة البشر إذ غريزته وفطرته البشرية برهان على تلك الضرورة، وقد شهد غير المسلمين بفطرة التدين، يقول الفيلسوف الفرنسي هنري برجستون: " لقد وجِدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير عقيدة دينية "[(1)]، ويقول الفيلسوف أوجست سبانيه : " لماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مشوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو أني متدين؛ لأني لا أستطيع غير ذلك، فالتدين لازمة معنوية من لوازم ذاتي "[(2)]، وأجدر الأديان بالبقاء والانتشار والقبول هي التي تلبي حاجات البشر الفطرية والروحية والأخلاقية، وتسمو فيها القيم الفاضلة التي تستقيم فيها المثل الأخلاقية والقواعد السلوكية التي تضمن صلاح الأفراد والمجتمعات، ومن هنا كان الوفاء بحاجات البشر من الجانب الفطري والروحي والأخلاقي المعيار السليم والدقيق على صحة الدين وعدم تحريفه وتلويثه، والسنة النبوية هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في وفائها بحاجات البشر، ومما ينبغي التنبيه إليه أن هذا البحث ليس بحثاً استقصائياً إذ لم يُستعرض فيه كل ما ورد من النصوص النبوية الدالة على وفاء السنة بحاجات البشرية الفطرية والروحية والأخلاقية؛ لأن ذلك مما يطول ذكره، فاقتصر فيه على موضع الشاهد.

أهداف البحث : يهدف هذا البحث إظهار عظمة الإسلام ومنزلته بين الديانات الأخرى، ودعوة التائهين الذين ضلوا في معرفة الدين الحق (الإسلام)

(★) أستاذ مساعد – جامعة البلقاء التطبيقية – كلية الأميرة عالية- المملكة العربية السعودية .

(1) محمد عبد الله دراز ، الدين ، (الكويت ، دار القلم) ص142.

(2) محمد عبد القادر العماري ، هذا هو الإسلام، (لبنان: دار الفكر، 1973م) ، ط3، ص60.

ويهدف أيضاً بيان دور السنة المشرفة في عالمية هذا الدين من خلال وفائها بحاجات البشر الفطرية والروحية والأخلاقية.

منهجية الدراسة: بُنيت هذه الدراسة في منهجية بحثها على المنهج العلمي القائم على ما يأتي :

أولاً: المنهج الاستقرائي والتحليلي: وتحقق ذلك بجمع مرويات السُّنَّة النَّبويِّة التي تضمنت حاجات البشر وتحليل ما جاء في المرويات من مضامين تناولت الأبعاد والمكونات لتلك الحاجات ، وبيان علائق المكونات بعضها ببعض .

ثانياً: المنهج الاستنباطي : لإيضاح المضامين ، وأبعادها في السُّنَّة النَّبويِّة، ويتحقق ذلك من بعد استقراء المرويات الحديثية ، وتحليلها ، والاستفادة من فقهها، وربطها بواقع الحياة.

ثالثاً: منهج المقارنة والموازنة : وذلك من خلال مقارنة وفاء السنة النبوية بحاجات البشر الفطرية والروحية والأخلاقية مع التشريعات والقوانين الوضعية.

هيكل البحث : وهذا البحث يتناول جوانب السنة النبوية ووفائها بحاجات البشر ، وذلك على النحو التالي :

المبحث الأول : وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الفطرية، وتشمل المطالب التالية :

المطلب الأول: فطرة الأكل والشرب .

المطلب الثاني: فطرة النوم.

المطلب الثالث: فطرة طهارة الجسد.

المطلب الرابع: فطرة اللباس.

المطلب الخامس: فطرة الزواج.

المبحث الثاني : وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الروحية، وتشمل المطالب التالية :

المطلب الأول: التوكل على الله والاعتصام به .

المطلب الثاني: تحقيق الطمأنينة والأمن الروحي.

المطلب الثالث : محاسبة النفس ومراقبتها(النقد الذاتي).

المبحث الثالث : وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الأخلاقية .

المطلب الأول: العدل.

المطلب الثاني: الوفاء بالعهد.

المطلب الثالث: الرحمة .

المطلب الرابع: التسامح.

المطلب الخامس: التساند بين الفرد والجماعة .

المبحث الأول

وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الفطرية

تميز الإسلام العظيم بطابعه الفريد في بناء الإنسان، ووفائه بحاجات فطرته[1] التي فطر الله الناس عليها، وهذا يدل على كمال هذا الدين وعظمته، وإرسائه القواعد المثلى لبناء مجتمع إنساني سليم من الآفات والعوارض التي تعيق، أو تلغي الرغائب البشرية، ومن هنا نظَّمت السنة النبوية الوفاء بحاجات الفطرة، وهذا برهان ساطع على عالمية السنة النبوية وصلاحيتها لكل زمان ومكان، فهي رسالة سماوية سامية شاملة تهدف إلى صلاح البشرية عموماً ولذلك كان مقصدها الرقي بالإنسان من خلال فطرته السليمة التي تتطابق تطابقاً كاملاً مع السنة المطهرة، فمطالب النفس البشرية النفسية، والجسمية، والغرائز جُعلت لها ضوابط، فلم تعمل على إلغائها ولا وسَّعت حدودها، كل ذلك من أجل حفظ التوازن الطبيعي للإنسان وفطرته، فرغائب الجسد مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدوافع المطالب الروحية، والسلوكية، والنفسية، ولا يمكن لنمو الإنسان نمواً سليماً وصحياً بتجاهل هذه الحقوق والحظوظ، فقد ضمنت السنة النبوية مطالب الفطرة الإنسانية في مختلف جوانبها، ووفَّقت بين الانفلات والكبت مراعية بذلك بين الجسد والروح، والفرد والجماعة، وأنواع الحقوق الأخرى، " ولم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً سوى النبي محمد - ﷺ - كان صاحب رسالة عالمية، وباني أمة، ومؤسس دولة "[2] ومن أمثلة ذلك حديث أبي جُحَيْفَةَ، قال :((آخَى النَّبِيُّ - ﷺ - بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً[3]، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ، قَالَ:فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ

---

(1) الفطرة : هي الجِبِلَّة التي عليها أصل الخِلْقة الإنسانية ، ينظر: محمّد بن محمّد الحسيني الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس،(دار الهداية) ،ج: 13، ص329، مادة (فطر).

(2) ينظر: أنور الجندي ، عالمية الإسلام ، (القاهرة : دار المعارف ، 1982م) ص91.

(3) مُتَبَذِّلَةً : أي تاركة للتزين بالهيئة الحسنة الجميلة، ينظر: المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوى، وآخرون(بيروت، المكتبة العلمية، 1399هـ - 1979م)، ج:1، ص111.

لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ،فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ- صَدَقَ سَلْمَانُ))(1)، فقد ربَّى النبي - ﷺ- أصحابه على عدم الغلو والتقصير، وكل ذلك من أجل تحقيق الاعتدال والتَّوازن بين مطالب الجسد والروح ، والمتأمل في مرويات السنة النبوية أيضاً يجد النبي- ﷺ- مصححاً للمفاهيم الخاطئة التي تظن أن تغليب مطالب الروح وإهمال رغائب الجسد هو السبيل القويم والوحيد لصلاح النفس البشرية وفطرتها، ومن صور ذلك حديث : ((جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ[2]إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ - ﷺ - يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا ، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ - ﷺ- ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ :أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ ، وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ، فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))[3]، فالسنة النبوية تربط ربطاً وثيقاً بين العبادة والحياة وتجعلهما وحدة متكاملة، فلا تنشطر فطرة الإنسان بذلك الربط المحكم؛ لأن كل المناهج والديانات والملل الأخرى فصلت بين الدين والدنيا، وبين المطالب الروحية والجسدية، ولم توفق بينهما، فالمسيحية فشلت في صورتها العملية عند التطبيق"لأنها تطلب من البشر فوق ما يطيقون احتماله، ولأن كبت النوازع الفطرية أمر مستحيل، فدفعة الجسد قوية عنيفة، وهي لا تفتأ تُلِحُّ على الإنسان وتضغط عليه ضغطاً ليستجيب إليها، فإذا وقع الفرد بين ضغط الغريزة الدائم المُلِحّ، وبين العقيدة التي توحي إليه أن الاستجابة لهذا الضغط دنس لا يجوز أن يلوث به نفسه، فليس لذلك إلا نتيجة واحدة أو إحدى نتيجتين:إما أن يستجيب لوحي العقيدة- إن استطاع- فيترهبن وينقطع عن الحياة والأحياء، أو يستجيب لدفعة الجسد العنيفة المُلِحَّة، فيطلق الشحنة الحبيسة التي يرهقه حبسها

---

(1) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى ديب، (بيروت: دار ابن كثير، 1987م)، ط3، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع...،ج:5، ص 1995.

(2) رهط:الرهط من الرجال ما دون العشرة، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث:ج:2، ص 283.

(3) مسلم بن الحجاج القشيري ، صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ج:2،ص1020، ح (1401).

ويعذبه، ولكنه مع هذا لا ينجو من العذاب فهناك الصراع الداخلي العنيف الذي ينشب في ضمير الفرد الذي تستولي عليه هذه العقيدة: صراع بين ما فعله وما كان ينبغي أن يفعله، صراع بين الجسد والروح "[1]،علماً بأن الإسلام العظيم والسنة المطهرة تحديداً وظّفت فطرة الإنسان توظيفاً متكاملاً بين حق الله تعالى وحق النفس البشرية ، ومعها كذلك حقوق الآخرين وما يستتبع ذلك من التزامات، ولذا يمكن القول بأن هذا الأمر يعد دليلاً على عالمية الإسلام وظهوره على كل الأديان الأخرى؛ لسموه في توحيد الأولوهية وسهولة فهمه، وتحقيقه لاحتياجات البشر الدينية والدنيوية، وترشيده للقواعد السلوكية والأخلاقية التي تضمن صلاح الفرد في نفسه ومجتمعه،ولذلك وعى الصحابة- رضي الله عنهم- معاني الفطرة وأوجهها، فلم يسلكوا مسلك رهبانية أهل الكتاب، ولم ينغمسوا انغماساً كاملاً في ملذات الجسد، ويمكن إيضاح بعض أوجه عالمية السنة من خلال فطرة الأكل والشرب، وفطرة النوم، وفطرة طهارة الجسد، وفطرة اللباس، وفطرة الزواج .

المطلب الأول: فطرة الأكل والشرب

اعتنت السنة النبوية بحاجات البشر الفطرية والتي يتحقق من خلالها البقاء، ويكون الجسد بها سليماً قوياً، ومن هذه الحاجات الفطرية فطرة الأكل والشرب، وقد امتن الله تعالى على قريش بأنه ﭽ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭽ [قريش:4]، وذكر أنه من أوصاف رسله وهم صفوة الخلق أنهم يأكلون الطعام، فقال: ﭽ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﭼ [الأنبياء:7-8]" فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية، والجسدية من مقتضيات البشرية "[2]، فحاجات البشر الفطرية في الأكل والشرب ظاهرة للعيان؛ لأن تغذية أجسادهم تجعلهم قادرين على الاستمرار، ولا يمكن في حال من الأحوال تخيل البشر من غير أكل أو شرب، ومن هنا جاءت السنة المطهرة للتنبيه على أنَّ الصوم والذي هو امتناع عن الأكل والشرب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس لا يكون دائماً وديدناً، ولذلك صحَّح النبي - ﷺ - للنفر الثلاثة

(1) محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام،(دار الشروق، 1418هـ- 1997م)، ط12، ص12.

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن،(بيروت، دار إحياء التراث العربي،1391م)، ط7،ج :4، ص2368.

الذي قال واحد منهم: " أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ، وَلاَ أُفْطِرُ "، فردَّ عليه النبي- صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))(1)، وكان من أدعيته- ﷺ- الاستعاذة من الجوع كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه – ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ))(2)، والنفس البشرية تحتاج إلى الحذر من الجوع كما تحذر من التُّخَم:

واخشَ الدسَائسَ من جوعٍ ومن شبعٍ فَرُبَّ مَخمصةٍ شَرٌّ مِن التُّخَم(3)

ومن هنا ندرك خطأ بعض المتصوفة وانحرافهم في جعلهم الجوع أحد وسائل المعرفة وصفاء القلب، والسلوك القويم، فقد تجاهلوا في فعلهم واقعية الإنسان في غرائزه وفطرته، ولذلك تعذر عليهم طمس هذه الغريزة ومن ثم بالغوا في الشهوات، ومن أجل ذلك جاءت السنة النبوية مؤكدة على حفظ توازن الجسد من حيث الأكل والشرب، ففي الحديث: ((مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ))(4)، فملء ثلثي حجم المعدة هو الحد الطبيعي والمتوازن في درجات الشبع عند الإنسان، وهذا الحديث تناول إحدى الحقائق العلمية الطبية الوقائية، فالإفراط في تناول الأطعمة ضار بصحة البدن؛لأن البدانة (السُّمنة) يصاحبها كثير من الأمراض الخطرة كالسكري، وضغط الدم، وداء النقرس، وغيرها من الأمراض (5)، ولم يدرك هذا السبق النبوي أحد من الأطباء والمختصين إلَّا في وقت متأخر، وهذا يدلل على عالمية السنة المطهرة إذ حذرت منظمة الصحة العالمية من ضرر البدانة الكبير على صحة البشرية.

المطلب الثاني: فطرة النوم :

---

(1) سبق تخريجه ص (5).

(2) أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني ، السنن، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر، 1410هـ) ، كتاب سجود القرآن، باب في الاستعاذة،ج:1،ص483، ح (1547).

(3) شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، البُردة، مطبوعة مع شرح إبراهيم الباجوري ، تحقيق :عبد الرحمن محمود ، (القاهرة: مكتبة الآداب)،ص5.

(4) محمد بن عيسى الترمذي، الجامع، تحقيق: بشار عواد معروف،(بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م)، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل،ج: 4،ص168، ح (2380) .

(5) ينظر: عبد الجواد الصاوي، الإعجاز العلمي في حديث الثلث،(مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي،مجلة الإعجاز العلمي ، 1423ه) ، ص9.

يُعدُّ النوم آية من آيات الله تعالى التي فُطِرَ البشر عليها، فقال- جل وعلا- :

ﭽﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﭼ [الروم:23]، وقال أيضاًﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭼ [النبأ:10-11]، وجاءت السنة النبوية مؤكدة ومرشدة إلى هذه الفطرة التي تنمي قابلية الجانب البدني، وتجعله قائماً بمهامه ومطالبه، وهذه الوسطية والاعتدال مما يؤكد عالمية هذه السنة الشريفة، ويجعلها تتخطى حدود الزمان والمكان، وتخاطب الأفراد والجماعات؛ لأنها جاءت متفقة مع الفطرة ولا تضادها، ومن هنا واءمت بين الجسد والروح، ولم تُغلِّب جانباً على آخر، ومن أمثلة ذلك قوله- ﷺ- لعبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما: ((يَا عَبْدَ اللهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَلاَ تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا))[(1)]، وفي لفظ آخر:((وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَظًّا))[(2)]، فنجد النبي - ﷺ - يحرص على إيفاء الفطرة حقها ، بقوله: ((إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لاَ يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ، فَيَسُبَّ نَفْسَهُ))[(3)]، فقد أمر بقطع الصلاة والانصراف منها لمّا تعارضت هذه الصلاة مع فطرة الإنسان الطبيعية في حالة النوم ، وعَلَّل ذلك بأنه يستبدل السَّب بالاستغفار، وفاعل ذلك يغالب فطرته والفطرة لا تُغالب ؛ لأنها غالبة في نهاية المطاف .

وليس من سنة النبي - ﷺ - الغلو والإفراط في إهمال حظوظ النفس وفطرتها حتى لو كان يستدعي ذلك ترك ما يُتعبد به من النوافل، فالنفس البشرية لها حدود وطاقات في قدرتها على التحمل ؛ ﭽ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﭼ [البقرة:286] ، وعندما أخبرت عائشة - رضي الله عنها- النبي- ﷺ - عن الْحَوْلاَءَ بِنْتِ تُوَيْتِ - رضي الله عنها-أنها كانت "لاَ تَنَامُ اللَّيْلَ " من أجل إكثارها من نوافل الصلاة ، فأنكر النبي- ﷺ - ذلك عليها، وقال: ((لاَ تَنَامُ اللَّيْلَ !خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ))[(4)]، فالنوم فيه راحة للعين والذهن والجسد، وقد أكَّدت البحوث

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب النكاح، باب حق الجسم في الصوم،ج: 5،ص1995، ح(1874).

(2) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الصوم، باب حق الأهل في الصوم،ج: 2، ص698 ، ح (1876).

(3) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم،ج:1، ص87، ح (209).

(4) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته،ج:1،ص542،ح (785).

والدراسات الطبية منافع النوم للجسم والتي منها : زيادة مخزون الطاقة، وتنشيط الذاكرة، وإراحة الجهاز العصبي، وتقليل نمو الخلايا السرطانية، وغيرها [1]، وهذه الفطرة وكيفية التعامل معها، وتسديدها دليل على عالمية الإسلام ووسطيته، من خلال توازنه واعتداله ، فالفطرة الربانية طريقها سوي لا يحمل غلواً ولا تفريطاً ، ومن أجل ذلك نهت السنة النبوية عن طغيان بعض القيم الفاضلة على حساب الأخرى ؛ لأنه لا ينسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

المطلب الثالث: فطرة طهارة الجسد

حضَّت السنة النبوية على التحلي والاتصاف بخصال الفطرة التي تتواءم مع التكوين البشري، وتنسجم معه انسجاماً كبيراً، وهذه الخصال تمثل فطرة الإنسان في طهارة ظاهره وباطنه، وبذلك فسَّر ابن عباس الكلمات التي ابتلى الله تعالى إبراهيم- عليه السلام - بها في قوله تعالى ﭽ ﮱ ﮯ ﮮ ﮭ ﮬ ﮫ ﭼ [البقرة :124] بطهارة الجسد ونظافته ، وإزالة تَفَثِهِ [2]، ومن الخصال التي صرَّح بها النبي- ﷺ - وعدَّها من سنن الفطرة حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً:((عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ ،وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ [3]، وَنَتْفُ الإِبْطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ[4]))[5]،" فهذه كلها خصال مستحسنة في العقول ،محمودة مستحبة في الأخلاق والعادات، وقد أكَّدها التوقيف من الرسول صلّى الله عليه وسلم"[6]، وقد وقد شهد سفير ألمانيا في المغرب مراد هوفمان بعد استعراضه صور الطهارة وموجباته في الإسلام كالغسل والوضوء وغيرهما، فقال: " يمكنني أن أقول بصدق إنني انزعجت مراراً من رائحة أناس يجلسون بجانبي في حفلات الأوبرا

(1) أسكندر بوربلي، أسرار النوم، ترجمة: أحمد عبد العزيز سلامة، (الكويت:عالم المعرفة، 1978م)، ص22.

(2) ينظر: محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان في تأويل آي البيان، تحقيق أحمد محمد شاكر،(بيروت، مؤسسة الرسالة ،1420هـ،2000م)،ط1،ج2:،ص9.

(3) البراجم : العقد التي في ظهور الأصابع ، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث،ج: 1،ص 113.

(4) انتقاص الماء: أي الاستنجاء بالماء، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث،ج: ،ص 283.

(5) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة ، ج:1،ص223، ح (261).

(6) أحمد بن علي الرازي الجصاص، أحكام القرآن، تحقيق: محمد القمحاوي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1405 هـ)ج:1،ص82.

الغنائية في باريس، أو في مركز لنكولن في نيويورك، أو في المسرح الوطني في ميونخ؛ إلا أنني لم أنزعج من رائحة كريهة على الإطلاق في مسجد من مساجد المسلمين" [1] فسنن الفطرة جُعِلت في أمة محمد - ﷺ -كما جعلت في ملة أبينا إبراهيم- عليه السلام -وهذا يدلل تدليلاً ظاهراً على عالمية السنة النبوية إذ اتفقت الملل عليها ، فلم تخص أمة نبي دون آخر، وهو يدل على استمرار الشرائع السماوية بمراعاة هذه الفطرة إذ لم يرو نسخها أو إلغاؤها ، وعالمية السنة المطهرة تظهر كذلك من خلال عنايتها بسنن الفطرة والتي من آثارها الصحية الوقاية من الأمراض والأوبئة الضارة بالأفراد والشعوب كافة، والذين أهملوا سنن الفطرة هم في الحقيقة منسلخون من إنسانية هذه الغريزة الفطرية ، ولو أرسلوا على سجيتهم لظهرت عليهم عند الاسترسال، وهذا الأمر يؤكد عالمية السنة النبوية وسموها عن التعقيدات التي اتسمت بها الديانات والملل الأخرى، ويجعلها في المقام الأول في بناء الأمم؛ لما فيها من الرشاد والنظرة المتكاملة، والمطلع على الواقع المعاصر يجد النفس الإنسانية عطشى؛ وذلك لإطفاء ظمئها من الضياع في الديانات المحرفة والفلسفات الضالة ، والقوانين القاصرة، والنظريات التي تتخطى الواقع الحقيقي للنفس البشرية.

المطلب الرابع: فطرة اللباس

من أعظم معطيات السنة النبوية السديدة إرشادها إلى النظرة الصحيحة والسليمة فيما يخص أحكام اللباس انطلاقاً من مبدأ تحقيق قيمها المضيئة التي لا تتعارض مع الفطرة الإنسانية، واختيارها لها ما يناسبها، وهذا بدوره يبين عالمية السنة النبوية وريادتها في هذا الجانب؛ لاستضائتها بنور الوحي، وقد نص القرآن الكريم على فطرة اللباس وسمَّاه زينةً، فقد أمر الله تعالى بترك التعري، وأكرم بني آدم بستر العورة، فقال جلَّ وعلا: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ [الأعراف:26]، وارتبط اللباس ارتباطاً وثيقاً بالعبادة من خلال السنة المطهرة، ومن أجل ذلك تنوعت أحكام اللباس الفقهية وارتباطه بالعبادة بين أحكام التكليف الخمسة، وصار أيضاً في بعض العبادات شرطاً أو ركناً، ولا يمكن تحقق العبادة بأنواعها المختلفة من غير زينة اللباس، ومن أنوار السنة

(1) مراد هوفمان، الرحلة إلى الإسلام، ترجمة : محمد دباس، (الرياض: مكتبة العبيكان ، 1426هـ) ، ط1،ص 123.

النبوية السديدة فيما يخص اللباس ترغيبه - ﷺ - في لبس الثوب الحَسَن وتعليله لذلك بـ((إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ))[1]، فقد أدرج الرسول الكريم حسن الثوب في حب الله تعالى لصفة الجمال، وعدَّ لبس الثوب الجميل والحسن من أسباب حب الله تعالى لرؤية نعمته على عبده، فعن أبي رجاء العُطَارِدي، قال: خَرَجَ عَلَيْنَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ مِنْ خَزٍّ [2] لَمْ نَرَهُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ وَلاَ بَعْدَهُ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ))[3].

المطلب الخامس: فطرة الزواج

فطرة الزواج من الغرائز الإنسانية والتي لها دور فاعل في استمرار تناسل الحياة البشرية، والجسم البشري له حظ من الفطرة في الإشباع الجنسي، وهو ضرورة من ضرورياته، فالله تعالى جعل الحياة البشرية وفطرتها في الزواج وهي من آيات قدرته الدالة على عظمته وحكمته، فقال جل وعلا :چڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ چ [الروم :21]، فالزواج يُنَمِّي المودة والرحمة والألفة بين الزوجين ، ومن هنا كانت فطرة الله تعالى التي خلق الناس عليها لا يمكن تبديلها ولا الاستعاضة عنها بأي أمر من الأمور؛ لأن الله تعالى خلق البشر موافقاً لطبيعته ووجوده، فالزواج آية من آيات الله الدالة على عالمية الإسلام من غير استقذار ما فُطِرَ عليه البشر؛ لأن ذلك الاستقذار أو الرهبنة يخالف فطرته، ولا يلبي حاجات نفسة وعقله وجسده، فالزواج في النصرانية وفي كتابات "بولص" الواردة في الإنجيل« تُشين الزواج افتراءاً وتمدح

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه ، ج:1،ص93، ح (91).
(2) مطرف خز: ثوب من حرير عليه أعلام ورسوم، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ج:3، ص121.
(3) أحمد بن حنبل الشيباني، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين، (الرياض: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر،1416هـ- 1995م)، ط1،ج:33، ص159.

العزوبية داعية إلى الرهبانية، والتي تسببت للكاثوليك في كثير من الآلام والمعاناة، والعُقد الجنسية، والشعور بالذنب،وغير ذلك من المشكلات » [1]، لذا اعترفت السنة النبوية بالرغائب البشرية ونظمتها في أُطر الضوابط الشرعية والأخلاقية، والتي هي بمثابة صمام الأمان للغرائز الإنسانية من أجل حمايتها من الانحراف أو الإسراف، فبفطرة الزواج يجد الإنسان الراحة والسكينة والاستقرار بين الرجل والمرأة، ويلبي لكل منهما غرائزه ورغائبه من غير انحراف ولا اضطراب ولا تفسخ اجتماعي ولا فوضى جنسية كما هو الحال عند الغربيين، وكل هذا عقوبة من الله تعالى لمن يخالف فطرته ويتنكُّبها، وقد أظهرت ذلك "الإحصائيات[2] "التي تدل على جسامة هذا الأمر وخطورته، فقد أثبتت دراسة ميدانية «أجريت على (34500) شخص تبين من خلالها أن الزواج يساعد على الاستقرار النفسي[3]، ويخفض من أسباب الإصابة بالاكتئاب والانتحار والأمراض الجنسية؛ ومن أجل ذلك حضت السنة النبوية على الزواج ورتَّبت عليه أجراً، ونهت عن التَّبَتُّل؛لأنه يُعد رهبنة باطلة ومبتدعة، وفيها اعتداء على المطابقة بين الشريعة والفطرة، فقدكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ بِالْبَاءَةِ [4]، وَيَنْهَى عَنِ التَّبَتُّلِ [5] نَهْيًا شَدِيدًا، وَيَقُولُ: ((تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، إِنِّي مُكَاثِرٌ الأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) [6]، فالسنة النبوية تنظر إلى الإنسان نظرة طبيعية، ومن أجل ذلك سايرت فطرته وطبيعته وخصائصه، ولم تحرمه من هذه الفطرة؛ لأنها تنفعه نفعاً عظيماً، وأبقت عليه من خلال زواجه وتناسله، ولم تسلك به سبيل الفناء والانقراض، بل رتبت السنة النبوية الثواب والصدقة لمن يعاشر زوجه في الحلال، فعن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: ((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا :يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ:

(1) مراد هوفمان، الإسلام كبديل، ترجمة: غريب محمد غريب ، (الرياض: مكتبة العبيكان ، 1418هـ-1997م) ط2،ص46.

(2) تنظر هذه الإحصائيات في كتاب الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي، عبد الله ناصح علوان،(القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر،1992م)، ص16-23.

(3) ينظر : موقع http://arabic.cnn.com

(4) الباءة : القدرة على النكاح والتزوج ،ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ج:1،ص160.

(5) التبتل: الانقطاع عن النساء وترك النكاح،ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ،ج1:،ص94.

(6) ابن حنبل ، مسند الإمام أحمد ، ج:20،ص63، ح (12613)، والحديث صحيح.

أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا في حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا في الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ))[1]، فالسنة المطهرة فتحت الثواب على الاستمتاع المباح تأكيداً منها على فطرة الزواج وإشاعته والترغيب فيه والحض عليه، وهذا يُظهر عالمية السنة النبوية ؛ لأنها تعايش الإنسان، وتوفِّي حقه من طبيعته وفطرته، ولمَّا كانت الحضارات والديانات السابقة والفلسفات الوضعية لا تعايش ولا توفي الفطرة حقها اصطدمت بواقع هذه الفطرة وأدت بها إلى الانزواء في الأديرة والكنائس والمعابد ، وجعلت الإنسان يعيش هملاً وسدى من غير توجيه ولا إرشاد .

المبحث الثاني
وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الروحية

يُعد الجانب الروحي في النفس البشرية المرتكز الأساسي الذي بمقتضاه يتجه إلى عمل الخير والشر وبصلاحه يؤدي إلى صلاح الجوانب الأخرى ، فعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه - مرفوعاً «...وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ » [2]، فالإنسان السَّوي لا يمكنه تجاهل المطالب الروحية التي تُشكِّل نصفه الآخر مع الجسد، ومن أجل ذلك هو محتاج إلى إطفاء ظمئه الروحي من خلال التدين، ولمَّا كانت هناك ديانات مُحرفة ومناهج ضالة فلا بد على طالب الحق أن يتعرف على الدين الصحيح الذي يوفيه حقه، فخلاص البشرية لا يمكن بدين مُحرف، ولا بإهمال لسمو الروح والقيم الخُلقية «فأنت بالروح لا بالجسم إنسانُ»، وقد برزت حضارة الإسلام من خلال امتلاكها جانباً روحياً نقياً عالمياً، يقول

---

(1) مسلم،صحيح مسلم،كتاب الزكاة،باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف،ج: 2، ص697،ح (1006)

(2) البخاري ،الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه،ج:1، ص28، ح (52).

شبنلجز:« إنّ للحضارات دورات فلكية، تغرب هنا لتشرق هناك، وإن حضارة جديدة أوشكت على الشروق في أروع صورة هي حضارة الإسلام الذي يملك أقوى قوة روحانية عالمية نقية» [1]، وقد بسطت السنة النبوية حقائقها المتعلقة بحاجات البشرية الروحية على كل أمور الحياة انطلاقاً من توازنها بين مطالب الجسد والروح ، ويمكن تجلية بعض من ذلك من خلال ما يأتي :

المطلب الأول: التوكل على الله والاعتصام به :

تغرس السنة المطهرة في النفس البشرية من القيم الروحية التي لها الأثر الكبير في سعادة البشرية وراحتها، ومن هذه القيم الفاضلة والفاعلة التوكل على الله والاعتصام به، فالتوكل على الله هو ثمرة توحيده والإيمان به، وهذه القيمة الروحية تجعل العبد قوياً بربه ؛لأن من انعدم توكله أو ضعف تكون حياته جحيماً مليئة بالخوف من العين والحسد والسحر والشعوذة، وانقطاع الأرزاق، وفقدان الوظائف، ولا ريب أن المتوكلين على الله تعالى لا تنتابهم هذه المخاوف ويعيشون سعداء أقوياء وراضين ومطمئنين لتوكلهم على ربهم واعتصامهم به، فهم يوقنون إيقاناً كاملاً بأن الله تعالى بيده الخير وأن كل شيء بأمره- جل وعلا - وأن الأمة لو اجتمعت على نفع أحد بشيء لم يكتبه الله تعالى لم ينفعوه، وكذا لو اجتمعوا على الإضرار بأحد لم يكتبه الله تعالى لم يضروه، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما-أن النبي- ﷺ- قال له :« يَا غُلامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ،وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ... »[2]، فهذا الحديث اشتمل على حقيقة عظمى تُريح فطرة الإنسان، وتقوي عزيمته، وترسخ ثباته، وهي الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه والاعتصام به، ولا تجعله مشتت البال، وموزع الأفكار، ولذا لا يصيب المؤمن المتوكل على الله الانهيار عند الشدائد والمحن، فالعون الإلهي والثقة بالله تكسبه قوة وتحملاً على شدائد الحياة ومشاقها، ومن أجل ذلك ازدادت حالات القلق والاكتئاب في أنحاء العالم بسبب تجاهل هذه القيم الروحية، وقد أقرت منظمة الصحة العالمية

---

(1) مهدي عبود،عقيدة الإسلام أيدلوجية المستقبل،(المغرب: الدار البيضاء، دار الكتاب،1976م) ص82.

(2) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد،ج :4،ص 409، ح (2669)، والحديث كل رجاله ثقات .

سنة (1984م) بأن العامل الروحي هو رابع المكونات للصحة العامة، والتي تشمل العناصر البيئية، والنفسية، والاجتماعية، فالتوكل على الله والاعتصام به قيمة روحية لا تخص البشر وحدهم، بل تتعداها إلى الحيوانات فالطيور ترزق به، ففي الحديث: ((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ؛ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا [1]))[2]، فالطيور فطرها الله تعالى على الأخذ بالأسباب، ولذا لم تجلس في أوكارها، بل هي تغدو لطلب رزقها وهي جائعة، ، ثم ترجع إلى أوكارها في آخر النهار، وقد شبعت بطونها، وهي لا تزرع الحب، ولا تحصده، ولا تدخره؛ لضعفها وقلة حيلتها، ولكن الله يرزقها يوماً بيوم، لذا ينبغي أن نأخذ بالأسباب ونتوكل على الله، فسنة الأخذ بالأسباب قررتها السنة النبوية ؛لأن مشيئة الله تعالى وحكمته اقتضتها، كما أنها أفردته تعالى بالتوكل عليه، وهذا الأمر لا يستغني عنه أحد العالمين، فقد كان- ﷺ - يأخذ به ، ويوجه أصحابه في مراعاتها لهذه السُّنة الربانية.

المطلب الثاني: تحقيق الطمأنينة والأمن الروحي:

الطمأنينة والأمن الروحي من أعظم نِعَم الله تعالى على الإنسان؛ لأنه بدونه تخلو الحياة البشرية من السعادة، والراحة النفسية والجسمية، وصلاح البال، وقد جاءت النصوص القرآنية والمرويات الصحيحة في بيان دور الحاجات الروحية وأثرها الكبير في استقرار النفس وطمأنينة القلب،ومنها قوله تعالى: چ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ چ[الرعد :28]، چ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ چ[محمد:2] " وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان بالقدر، والقيمة والأثر والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام، ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام "[3]، ويعد

---

(1) تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا :أي تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف ، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث،ج:2،ص80.

(2) الترمذي، جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع،ج:4،ص151، ح (2344)، وصححه.

(3) محمد عودة ، ومحمد مرسي، وكمال إبراهيم، الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام (الكويت، دار القلم، 1418هـ - 1998م)، ط 4، ص64.

الأمن الروحي ثمرة من ثمرات التوكل على الله تعالى والاعتصام به، ذلك أنه يحقق طمأنينة النفس وصحتها، فالصحة النفسية هي: "أن يعيش الإنسان على فطرته في قرب من الله تعالى، وسلام مع الناس، ووئام مع النفس، وسلامة في الجسد، ونجاح في الحياة "[1]، وقد رسمت السنة النبوية في ضوء علم النفس منهجاً متوازناً لبَّت فيه جميع احتياجات النفس الإنسانية من العبادات والمعاملات والأخلاق، ومن هنا كان شعور المسلم بحلاوة إيمانه واستقرار نفسه واطمئنانها سواء كان في السراء أو الضراء، وهذا مما يحقق الصحة النفسية، ففي الحديث النبوي ((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَه))[2]،وأكثر الذين اعتنقوا الإسلام من أهل الديانات الأخرى إنما قادتهم فطرتهم السليمة إلى الإسلام إذ وجدوا الانسجام الطبيعي والتطابق الكبير بين الإسلام وضمائرهم [3]،" ومعاني ومضامين الأمن في العربية، وآيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة النبوية: الطمأنينة المقابلة للخوف والفزع والروع في عالم الفرد والجماعة، وفي الحواضر، ومواطن العمران، وفي السبل والطرق، وفي العلاقات والمعاملات، وفي الدنيا والآخرة جمعياً "[4]، فالسنة النبوية عالجت الفراغ الروحي وذلك بتشريعاتها الكثيرة من الأذكار والعبادات المختلفة التي تنمي الأمن والطمأنينة وسكون النفس واستقرارها، وهذا الأمر هو السبب في قلة الجرائم وظاهرة الانتحار في البلدان الإسلامية، بينما نجد التوجه المادي وفقدان الجانب الروحي في المجتمعات الغربية هو الدافع الرئيس في ظهور الجرائم والانتحار، وأكَّدت ذلك الإحصائيات الصادرة عنهم" حيث يقع في أمريكا أربعة ملايين ونصف مليون جريمة خطيرة تقع كل عام:جريمة قتل كل 29دقيقة، جريمة اغتصاب(زنى بالإكراه) كل 17دقيقة، جريمة اغتصاب مال كل دقيقتين، جريمة سرقة كل 17ثانية"[5]، وقد أشار المؤرخ أرنولد توينبي إلى أن " الأزمة

(1) سيد قطب ، في ظلال القرآن،ج:6،ص3281 .
(2) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير،ج: ص2295،ح (2999).
(3) ينظر: سعد بن خلف العفتان، الإسلام دين الفطرة ،(حائل : مطبعة المعرفة،1414ه)، ط1،ص23.
(4) محمدعمارة ، الإسلام والأمن الاجتماعي، (القاهرة: دار الشروق ،1418ه) ، ط1،ص 11.
(5) جريشه علي محمد، ومحمد شريف الزيبق، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، (القاهرة: دار الاعتصام، 1399ه - 1979م) ، ط3،ص 226.

التي يعاني منها الأوروبيون في العصر الحديث إنما ترجع في أساسها إلى الفقر الروحي، وأن العلاج الوحيد لهذا التمزق الذي يعانون منه الرجوع إلى الدين "[1]،ولذا كثرت عند الغربيين المصحات النفسية، وانتشرت فيهم شركات التأمين المتنوعة؛لكثرة مخاوفهم على كل شيء يخشون منه المصائب، أو الفقدان، ولم يشفع لهم تقدمهم العلمي والتقني في تحقيق الطمأنينة، والأمن الروحي، ومما يؤكد عالمية هذه القيم الروحية أن البشرية في كل زمان ومكان تسعى إليها ؛لما لها من أثر بالغ في علاج النفس الإنسانية وراحتها وسعادتها.

المطلب الثالث : محاسبة النفس ومراقبتها(النقد الذاتي):

من أساسيات التربية الروحية محاسبة النفس؛لأن النفس البشرية تحتاج دائماً إلى مراجعتها ومحاسبتها من حين لآخر؛ حتى لا يغفل الإنسان عن واجباته تجاه ربه، ونفسه، والآخرين، ومن أجل ألَّا يتخبط في أهوائه، فالمحاسبة قوة ضابطة نابعة من داخل الإنسان تنبهه، وتصحح مساره، وتضبط سلوكه، وباستمرارية هذه المحاسبة تستجيب النفس البشرية لها، فواعظ النفس مهم في إتيان الأعمال الصالحة مما يجعلها متجذِّرةً في النفس، وبذلك ينعكس على رُقي المجتمعات وتقدُّمها على الصُّعد كافة، وهذه المحاسبة تتوافق مع الفطرة الإنسانية، فجاء القرآن الكريم آمراً بها،وذلك في قوله تعالى : ﭽ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭼ [الحشر:18]، وهذه المحاسبة توقظ النفس البشرية إلى مواضع التقصير والنقص والضعف، وورد في السنة المطهرة أنه ﷺ سأل جبريل عليه السلام- عن الإحسان فأجابه:((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ))[2]، فمقام الإحسان من أعظم وسائل التربية الروحية وأفضلها في تهذيب النفس البشرية، لذا ربَّت السنة النبوية النفس البشرية على الإحساس بالمسؤولية ، وتقوية الوازع الديني، فجعلت الإنسان يقف مع نفسه وقفة محاسبة وتأمل من أجل مراجعتها وتصحيح سيرها، وهذه المراقبة ثمرتها كسب الفضائل، أو ترك الرذائل، كما في قوله ﷺ:((لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ؟

(1) أرنولد توينبي،الحضارة في الميزان، ترجمة: أمين الشريف، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية) ص207-208.

(2) البخاري،الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي- ﷺ-...، ج:1، ص27،ح (50).

))[1]، فقوة القوانين مهما بلغت قوتها فلن تستطيع إصلاح المجتمع؛ لأن هناك فرقاً بين الالتزام الداخلي، والالتزام الخارجي، فالقوانين الوضعية تكتفي بمعالجة الظواهر فقط، بينما كانت السنة النبوية تزرع في النفس البشرية المحاسبة والمراقبة في السِّر والعلن، وبه يتحقق صلاح الفرد ومن ثَمَّ المجتمع، وقد مارست أمم العالم المتحضر الرقابة والمحاسبة سواء كان ذلك في السلوك، أم الأخلاق، أم التشريع، وقد صَّرح أحد الأمريكيين بالأثر النافع للنقد والمحاسبة،فقال:" إننا ننقد أنفسنا باستمرار، وهذا مما يؤهلنا للبقاء في القمة "[2]، فالمحاسبة صفة ملازمة لكل نهوض مستقيم في الحياة للإنسانية، وهي إحدى وسائل الوقاية من الفساد والانحراف، ومعالجة الأخطاء التي تصيب الأفراد والمجتمعات، وما دامت صفة ملازمة للإنسانية فقطعاً أنها عالمية لا تخص قوماً أو فئة من الناس، وليست تخص زمناً معيناً دون غيره من الأزمان مهما اختلفت العصور؛ فالإنسان مطالب بها في كل الأحوال والأوقات لحاجته الماسَّة إليها.

المبحث الثالث

وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الأخلاقية

تضمنت السنة النبوية بعد القرآن الكريم كثيراً من القيم الأخلاقية ومحاسنها التي يحتاجها البشر عموماً، وهذا الأمر متفرع عن عالمية هذا الدين وشموله واستيعابه للأمم والأجناس البشرية، فالقيم الأخلاقية في السنة النبوية عالمية في ذاتها وهي مع ذلك مرنة وواقعية وواضحة في تطبيقها، إذ هي تستوعب كل مناحي الحياة وألوان السلوك البشري وفي شتى المجالات في الجماعات والأفراد، والسلم والحرب، والاقتصاد، والسياسة، والراعي والرعية، وغيرها من المجالات، كما أنها ليست مخصوصة بالمسلمين؛ لأنها مركوزة في فطر الخلق مهما اختلفت مللهم ونحلهم، وهذا بدوره يُعد مدخلاً للدخول في هذا الدين، ويمكن تجلية السلوك الأخلاقي القولي والعملي ووفاء السنة النبوية بهما من خلال ما يأتي :

---

(1) الترمذي، جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق ، باب في القيامة، ج:4،ص190، ح (2417).

(2) محمّد رفعت زنجير، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية بعنوان: حول النقد الذاتي وأهميته للنهضة والحياة.

المطلب الأول: العدل

تحتل فضيلة العدل مكانة متميزة في السنة المطهرة ؛ فهي قيمة مطلقة وميزان قويم لا مجال للتلاعب فيه، أو النسبية، أو الانتقائية، فالجميع يستوي في إعماله حتى لو كان صاحب الحق بغيضاً، فالعدل((يكفل لكل فرد وجماعة قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالبغض، ولا تتبدل مجاراةً للصهر والنسب والغنى والفقر، والقوة والضعف))(1)، وقد حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على تأكيد مبدأ العدل؛ حتى تتبناه الأمة من خلال أخلاقها وسلوكها السامي في جميع أمورها الصغيرة والكبيرة، كيف لا وهو الأسوة الحسنة، ومن هنا ندرك سبب قسمه في إقامة العدل ولو كان على ابنته فاطمة رضي الله عنها، ((وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)) (2)، فقد بيَّن أن العدل يجب تطبيقه على جميع الرعية من غير استثناء أحد، وهذا العدل منه إنما هو امتثال لأمر ربه جل وعلا في قوله :((وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ)) [الشورى:15] ، ولذا أعلن مساواة البشرية في جميع أجناسها وألوانها ملغياً الفوارق والتمييز العنصري بين البشر إلا بالتقوى، فقال في حجة الوداع : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ،أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، ولاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى))(3)، وهذا الحديث أكبر دليل على عالمية الرسالة النبوية في إذابتها الفوارق بين الأجناس، وهو سبب من أسباب سرعة انتشار هذا الدين والتمسك به وترسيخه لمبدأ سواسية البشر في الخِلْقة والحقوق، فالعدل ثماره كلها طيبة، ومنها عمران البلدان، وحصول الأمن العام، واستقرار المجتمعات، ونيل كل ذي حق حقه، ونماء الأموال، وتحقيق الازدهار، وبناء الأمم والحضارات، فالبشرية في ظل حضارة الإسلام تطمئن إلى نيل حقوقها إذ هي تدرك أنها تنصر المظلوم وتنصفه، وتأخذ على يد الظالم .

المطلب الثاني: الوفاء بالعهد

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن : 2190/4.

(2) البخاري،الجامع الصحيح، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد...،ج:6،ص2491، ح (6406).

(3) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد،ج:39،ص474، ح(9587).

حفلت السنة النبوية بالكثير من النصوص الدالة على الوفاء بالعهود والمواثيق العامة والخاصة ؛ لما فيها من خير في تحقيق المصالح، وفضّ المنازعات، وحل المشكلات بين الأفراد والجماعات، ولم يكن الوفاء بالعهود والمواثيق في السنة النبوية حبراً على ورق، بل مارسه المسلمون خُلقاً عملياً بدءاً من النبي - ﷺ- وحتى آخر خلافة تمسكت بعرى الإسلام، ومن النصوص النبوية التي تحذر من الغدر بالعهود والمواثيق قوله ﷺ :((مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا))[1]، وقوله:((لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ))[2]، ولم يعرف العالم عبر قرونه الطويلة تشريعاً يُجرِّم الغدر ويجعله محرماً إلَّا في عام (1907م) في مؤتمر لاهاي فقد نصت المادة (23) في القانون الدُّولي على أنه:" من المحظور قتل، أو جرح أفراد من الدولة، أو الجيش المعادي باللجوء إلى الغدر "[3]، وجاء في حديث أبي رافع رضي الله عنه قال : ((بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّبِيَّ وَقَعَ فِي قَلْبِي الإِسْلاَمُ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ لاَ أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، قَالَ :إِنِّي لاَ أَخِيسُ بِالْعَهْدِ[4]، وَلاَ أَحْبِسُ الْبُرُدَ[5]، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الآنَ، فَارْجِعْ))[6]، وهذه الأحاديث من أهم ما ورد في حفظ العهود والمواثيق، وحديث أبي رافع يؤصِّل للحصانة الدبلوماسية، وتأمين الرسل والسفراء للدول، وهذا الأمر لم تهتد إليه الدول إلَّا في القرون المتأخرة، تحديداً في القرن الثامن عشر في عام (1794م) [7]، فالسنة النبوية أصَّلت للقانون الدُّولي العام قبل

(1) البخاري،الجامع الصحيح، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم،ج: 3، ص1154،ح (2995).

(2) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر،ج: 3،ص1164، ح (3015).

(3) أحمد أبو الوفا، الوسيط في القانون الدولي، (القاهرة: دار النهضة العربية، 2004م)، ص 699.

(4) لا أَخِيس بِالْعَهْد : أي لا أنقضه، ينظر : ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث،ج 2ص92.

(5) لا أَحْبِس الْبُرُد: جمع بريد، وهو الرسول المستعجل، والمراد :أني لا أحبس الرسل الواردين عليَّ، ينظر: محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود،(بيروت: دار المعرفة)ص 19.

(6) محمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1414هـ - 1993م)، كتاب السير، باب الموادعة والمهادنة،ج:11 ، ص230، ح(4877).

(7) حسام محمد سعد سباط، ، اللجوء السياسي في الإسلام ،(الأردن: دار عمار، 1418هـ - 1997م)، ط1،ص9.

ظهور القوانين الدولية المعاصرة، ووضعت قاعدة حرمة المعاهدات وقدسيتها سِلماً وحرباً، لما له من أثر كبير في تنمية العلاقات الدولية وحل النزاعات، وهذا يؤكد على عالمية السنة النبوية التي حرصت على تحقيق مصالح الإنسانية وحقوق الإنسان من خلال الوفاء بالعهود المعقودة ، فالأخلاق الفاضلة وقيمها مطلب لجميع العقلاء في كل الأمم والمجتمعات قديماً وحديثاً، ومن هنا كانت سيرة النبي - ﷺ - وسنته تطبيقاً واقعياً للامتثال والالتزام بالوفاء بالعهود والمواثيق .

المطلب الثالث: الرحمة

أولت السنة النبوية أهمية كبيرة لخُلق الرحمة ؛ لكونها تحقق المعاني الإنسانية النبيلة ، وتشيع القيم الأخلاقية، والرحمة العامة مقصد إرسال الله تعالى للنبي ﷺ ﭽ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﭼ [الأنبياء :107]، " فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة مُحَمَّد - ﷺ-، ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين ... صيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول - ﷺ-، ومدح مُرْسله تعالى،ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه... وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته"(1)، فالله تعالى أرسله رحمة لجميع الأمم ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، مؤمنهم وكافرهم، ففي الحديث: ((قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً))(2)، والرحمة نوعان: غريزية ومكتسبة، فالغريزية قد جُبل بعض العباد عليها إذ جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم بحسب استطاعتهم، وأمَّا الرحمة المكتسبة فهي التي يكتسبها العبد بسلوكه كُل طريقة ووسيلة تجعل قلبه على هذا الوصف فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به

(1) طاهر ابن عاشور ، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور،(بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، 1420هـ-2000م)، ط1،ج:17،ص121.
(2) مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب،باب النهي عن لعن الدواب وغيرها،ج: 4،ص2005ح (2597).

ذلك[1]، وقد كثرت المرويات الحديثية كثرة بالغة دالة بمفهومها على خلق الرحمة؛ وذلك لارتباطها الكبير بالعلاقات الإنسانية سواء كانت اجتماعية،أو أسرية، أو اقتصادية، أو سياسية، فلا يخلو أي تصرف إنساني إلّا ويتضمن هذا الخلق السامي حتى شمل هذا الخلق الرحمة بالحيوان ، فعن النبي ﷺ ((بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا ، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ ، فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لأَجْرًا ؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))[2]، فقد كوفئ هذا الرجل برحمته الغريزية التي تمكنت من وجدانه بأن غفر الله تعالى له جزاء على هذا العمل اليسير، وقد علَّق النبي ﷺ رحمة الله تعالى بمن يرحم خلقه، وأن رحمته تعالى لا تُنال إلا برحمة الناس، فقال: ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ))[3]، وأكَّد كذلك على خلق الرحمة في صور عديدة ، ومنها :الرحمة بالصغار والعطف عليهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((قَبَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأَقْرَعُ :إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ثُمَّ قَالَ: مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ))[4]، وقد امتثل صحابة النبي - ﷺ- بخُلق الرحمة وبنوا عليه معاملاتهم، فقد روى أن عمر بن الخطاب" استعمل رجلاً من بني أسد على عمل، فجاء يأخذ عهده، قال: فأتي عمر - رضي الله عنه - ببعض ولده فقبَّله، قال أتقبل هذا؟! ما قبلت ولداً قط، فقال عمر: فأنت بالناس أقل رحمة، هاتِ عهدَنا لا تعمل لي عملاً أبداً " [5]، بل وشملت هذه الرحمة المخالفين بالعقيدة ، ففي حديث محرز بن قيس أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَمَرَ بِشَاةٍ فَذُبِحَتْ ،فَقَالَ لِقَيِّمِهِ : "هَلْ أَهْدَيْتَ

---

(1) ينظر: عبد الرحمن السعدي، بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار ،(السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 1423هـ)، ط4،ص270.

(2) البخاري ،الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم ،ج: 5، ص2238 ،ح (5662).

(3) ابن حنبل ، مسند الإمام أحمد،ج: 2،ص160، ح (6494.

(4) البخاري،الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ،ج: 5، ص2235، ح (5651).

(5) أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، السنن الكبرى ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (مكة المكرمة، مكتبة درا الباز، 1414 هـ) ، ج:9 ، ص41.

لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ شَيْئًا ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((مَا زَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ))[1]، قال ابن بطال: " في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة ، ويستعملها في أبناء جنسه وفى كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا، وكل أحد مسؤول عما استرعيه وملكه من إنسان، أو بهيمة لا تقدر على النطق وتبيين ما بها من الضر ، وكذلك ينبغي أن يرحم كل بهيمة وإن كانت في غير ملكه ، ألا ترى أن الذي سقى الكلب الذي وجده بالفلاة لم يكن له ملكًا ، فغفر الله له بتكلفة النزول في البئر وإخراجه الماء في خفه وسقيه إياه، وكذلك كل ما في معنى السقي من الإطعام"(2)، وهذا الخُلق العظيم الذي له ارتباط كبير بالمعاملات الإنسانية وبه ندرك عالمية السنة النبوية التي أخذت بعض صورها مؤسسات المجتمع المدني في وقتنا المعاصر.

المطلب الرابع:التسامح :

شغلت مسألة التسامح والتعصب عقول الكثيرين من منظمات حقوق الإنسان، والمصلحين ، والدعاة، والسَّاسة؛ خاصة في المجتمعات البشرية المتعددة الطوائف والتي لها خصوصية دينية ، أو عِرقية، أو قومية، أو لغوية؛ فالتسامح له أثر فعَّال وواقعي ملموس، إذ يُعد العمود الفقري لحقوق الإنسان ومعرفته يظهر ضده وهو التعصب ، ويراد به: " غلو المرء في اعتقاد الصحة بما يراه، وإغراقه في استنكار ما يكون على ضد ذلك حتى يحمله الإغراق والغلو على اقتياد الناس لرأيه بقوة، ومنعهم من إظهار ما يعتقدون ذهاباً مع الهوى في ادعاء الكمال لنفسه وإثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق "[3]، وقد شهدت المرويات الحديثية عن النبي ﷺ بتسامحه مع المخالفين له في العقيدة، وقد أثبت هذا التسامح عظمة هذا الدين، الذي كان سبباً من أسباب انتشاره ودخول الكثير في

---

(1) عبدالله بن الزبير القرشي الحميدي، المسند ، تحقيق : حسين سليم أسد ، (دمشق: دار السقا ، 1405 هـ - 1996م)، ط1،ج:1،ص505، (605) .

(2) علي بن خلف ابن بطال، شرح ابن بطال على صحيح البخاري، تحقيق: ياسر ابن إبراهيم، (الرياض:مكتبة الرشد، 1423هـ - 2003م) ، ط2،ج:9،ص220.

(3) أديب إسحاق، التعصب والتسامح ، بحث منشور في كتاب أضواء على التعصب، (بيروت: دار أمواج، 1993م) ط1، ص13.

الدين الحق، ومن هنا جاءت وصايا النبي ﷺ في سنته بأهل الذمة مبينة تحريم دمائهم[1]، وسُنَّة عيادة مرضاهم [2]، والقيام لجنازة موتاهم [3]، وتحمل الدية لمن قتل في حي من أحيائهم[4] ، والتعامل المالي معهم [5]، كما يتبين من خلال سنته - صلى الله عليه وسلم-أن اختلاف الناس غايته التَّعارف وليس التَّناكر، والتَّعايش وليس الاقتتال والتناحر، فالتسامح يقبل التنوع، ولا يعني التسامح التخلي عن الدين الحق والتفريط فيه، ولا عن حقوق الأفراد وخصوصياتهم، ولا ذوبان شخصياتهم، أو ذهاب مصالحهم ، وإنما يراد به التعايش مع الآخر بضوابطه الشرعية، وكل هذا يؤكد عالمية هذه السُّنة وأثرها في استقرار السِّلْم الاجتماعي والأُممي، فالتسامح وتعزيز قيمه الاجتماعية ضرورة يتحقق من خلالها نبذ العنف والتطرف، وضبط الاختلافات وإدارتها، وحفظ حقوق الأقليات؛ لتحقيق المصالح بين الأفراد والجماعات، وهذا الأمر كانت السنة النبوية هي الرائدة فيه، وقد سبقت بذلك المادة رقم [1] من القانون العام لليونسكو في الفقرة [3] حيث تقول: "إن التسامح مسؤولية تشكل عماد حقوق الإنسان "[6]، وقد صرحت

(1) فقد وصَّى النبي - ﷺ - أصحابه بالقِبْط خيراً ، فقال:«إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا» ، مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ،باب وصية النبي- ﷺ - بأهل مصر ،ج:4،ص1970، ح (2543).

(2) عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال:«كانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ » البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات ج:1،ص455،ح (1290). 1

(3) عن عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: «كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، أَيْ مِنْ أَهلِ الذِّمَّةِ، فَقَالاَ: إِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ- مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ ، فقيل له : إنها جنازة يهودي، فقال: أَلَيْسَتْ نَفْسًا» البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، ج:1،ص441 ، ح (1249).

(4) عَنْ بُشَيْرِ بْنِ يَسَارٍ- رضي الله عنه - زَعَمَ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ ، يُقَالُ لَهُ: سَهْلُ بْنُ أَبِي حَثْمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ انْطَلَقُوا إِلَى خَيْبَرَ، فَتَفَرَّقُوا فِيهَا، وَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلاً، وَقَالُوا لِلَّذِي وُجِدَ فِيهِمْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا؟ قَالُوا :مَا قَتَلْنَا، وَلاَ عَلِمْنَا قَاتِلاً، فَانْطَلَقُوا إِلَى النَّبِيِّ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ :انْطَلَقْنَا إِلَى خَيْبَرَ، فَوَجَدْنَا أَحَدَنَا قَتِيلاً، فَقَالَ: الْكُبْرَ، الْكُبْرَ، فَقَالَ لَهُمْ :تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ؟ قَالُوا: مَا لَنَا بَيِّنَةٌ، قَالَ: فَيَحْلِفُونَ؟ قَالُوا: لاَ نَرْضَى بِأَيْمَانِ الْيَهُودِ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ أَنْ يُبْطِلَ دَمَهُ، فَوَدَاهُ مِئَةً مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ"» البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الديات، باب القسامة، ج:6،ص 2528، ح (6502).

(5) عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ :"اشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا وَرَهَنَهُ دِرْعَهُ" ، البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الرهن، باب الرهن عند اليهود وغيرهم،ج: 2،ص888، ح(2378).

(6) ينظر : موقع http://www1.umn.edu/humanrts.

ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (1948م) بضرورة الأخذ بالتسامح وفيها :" نحن شعوب الأمم المتحدة وقد آلينا على أنفسنا :أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الإنسانية مرتين أحزاناً يعجز عنها الوصف، وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية، وأن نبيّن الأحوال التي يمكن في ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي، وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح، وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار "[(1)]، فالأقليات والطوائف من غير المسلمين حظيت بالرعاية والتسامح من خلال السنة النبوية، وهذا الأمر يدعو إلى الاعتزاز بالسنة النبوية من خلال انفتاحها وتفاعلها، وتعاملها الصحيح مع الفطرة السليمة، وكل ذلك يعطي الصورة الناصعة للإسلام وتقبله، وبه يمنح فرصة المراجعة لغير المسلم لدينه المحرف والباطل، فمن يرى سماحة الإسلام ورحمته يدرك أنه جاء موافقاً لفطرته وإنقاذاً له من الظلمات وزيف العقائد إلى نور الإسلام وهديه .

المطلب الخامس: التساند بين الفرد والجماعة :

اختطت السنة النبوية منهجاً متميزاً بين المناهج التي تتردد بين الإفراط والتفريط، وبين الإسراف والتقتير، وبين حق الفرد والجماعة،فالإنسان أصيل في فرديته وأصيل في جماعته ، وهذه هي فطرته التي لا تستقيم بأحدهما دون الأخرى، ومن هنا كانت السنة النبوية لها نظرتها الشمولية ، فمن المُسَلَّم به أن الفردية تقوم على تمجيد الفرد وتجعله الغاية والمحور مما يولد الأنانية المطلقة وتقديم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، وأما المذهب الاجتماعي فعلى عكس المذهب الفردي فيقوم على أساس تقديس الجماعة، وينجم عن ذلك إنكار ذاتية الفرد وانعدام قيمته الاجتماعية، وكل من هذين المذهبين تجاهل فطرة الإنسان، وافترضا التصارع والتناقض بين الفرد والجماعة، وقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة التي تؤصل لأهمية التساند بين الفرد والجماعة، فمنها حديث ((مَثَلُ

---

(1) ينظر: الجمعية العامة للأمم المتحدة ، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مطبوع في آخر كتاب حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة لمحمد الغزالي، (القاهرة: المكتبة التجارية، 1963م) ط1، ص262.

الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا [1] عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا [2] فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا))[3]، فالسنة النبوية توازن بين حق الفرد وحق الجماعة فتجعل المسؤولية قضية مشتركة بينهما؛ لأن ذلك مما يتلاءم مع فطرة الإنسان بين أفراد مجتمعه، فبناء المجتمع على الترابط والتماسك غاية ما كانت السنة النبوية تدعو إليه، واستلزم هذا التساند والترابط نصرة المظلوم، ودفع الظلم عنه والأخذ على يد الظالم، ففي الحديث((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ ،أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ))[4] ، فقد أقر النبي- ﷺ- بنصرة الأخ الظالم والمظلوم معاً؛لأن حقيقة النصر ليست مقتصرة على المعنى الشائع وهو نصرة المظلوم، بل يتحقق أيضاً بنصر الظالم، وذلك يتحقق بحجزه عن الظلم والأخذ على يده، والمشاهد والمطلع على أحوال الأمم والدول المعاصرة يجد أنها إما تقوم على أساس مذهب فردي، وإما على أساس مذهب جماعي، وقد تمزقت الإنسانية طويلاً بين هذين المذهبين، وهذا يؤكد على أن السنة النبوية هي دعوة عالمية بينت أن التساند بين الفرد والجماعة يكمل بعضهما بعضاً، وليسا متناقضين ومتصارعين [5].

(1) استهموا: اقترعوا ليأخذ كل منهم نصيباً، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج:2، ص429.
(2) الخرق : الثقب المستدير، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث،ج:2 ،ص26.
(3) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة ، ج:2 ، ص882 ،ح (2361).
(4) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المظالم، يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه ، ج:6،ص2250، ح(6552).
(5) ينظر: حسن السيد بسيوني، الدولة ونظام الحكم في الإسلام ،(القاهرة، عالم الكتب،1985م) ص44.

نتائج البحث :

1. مما يؤكد عالمية السنة النبوية اشتمالها على الكثير من المبادئ التي تتصل اتصالاً كبيراً بالعدل والتراحم والتعاون والتعاضد والتسامح.
2. السنة النبوية تُعد من أكثر أسباب التوجيه في شؤون الحياة ، وقيمها الروحية والأخلاقية حيث أوفت بكل ما تحتاجه المجتمعات البشرية مما هو مركوز في فِطرها.
3. أظهرت المرويات الحديثية في السنة النبوية التطابق الكبير مع الفطرة الإنسانية وفي جميع البيئات والأزمنة.
4. غاية السنة النبوية إيصالها الخير إلى جميع الناس وإسعادهم في الحياة وبعد الممات.
5. لبَّت السنة النبوية دواعي الفطرة السليمة، ومن هنا أوفت بحاجات البشر جميعاً ،فالقيم والفضائل تستقي من وحيها السديد، وهي خير ضمان للتعاملات الحسنة بين الناس؛ ولذلك هي ضرورة اجتماعية كما هي ملائمة للفطرة الإنسانية .
6. السنة النبوية تعترف بالغرائز الإنسانية وترسم لها طريقاً حلالاً من أجل تصريفها، وتضع لها ضوابط تمنع ضررها عن الأفراد والمجتمعات، وتقيم في داخل نفس الإنسان الإرادة الواعية من أجل ضبط شهواته؛ كيلا يشقى بغرائزه الفطرية، أو يُشقي غيره بها.
7. ضرورة توعية المجتمعات بأن الجانب الروحي هو أحد أسباب العلاج والوقاية من الأمراض النفسية ، وهذا الأمر لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب وتعاطي الأدوية العلاجية.